ظاهـــرة المعايشـــة التجاوزيـــة؟؟

www.arabpsynet.com/Documents/DocMarcelinaTranscPhenCohab.pdf

د. مرسلينا شعبان حسن
مجلة نفسية سوريا
mar-selena@hotmail.com

ظاهرة المعايشة التجاوزية ، هذه تتلخص من كونها ، تقام على عدم التمييز الواضح ، بين أين ينتهي مجالي ، بمعنى حدود الأنا الخاص بي ، وبين الأنا الآخر الشبيه لي في كل الحقوق والواجبات ..

من لديه هذه الخاصية يرى نفسه ، في شبيهه كأنه يراه في مرآة ، ويرى نفسه من هذا الجانب في المرآة

الاطفال تختلط عليهم المفاهيم بحكم عثرات النمو ، وخصائصها المعرفية والوجدانية

العاشق يرى نفسه في معشوقه ، كأنه يراه في

هذه الظاهرة معروفة عند الأطفال عادة ، وكذلك لدى البلدان المتخلفة في مسيرتها عن التطور الإنساني في تراكماته المعرفية المختلفة ، العلمية والأدبية وما إليها من تطور في عمل المجموعات والمؤسسات ، ظاهرة المعايشة التجاوزية ، هذه تتلخص من كونها ، تقام على عدم التمييز الواضح ، بين أين ينتهي مجالي ، بمعنى حدود الأنا الخاص بي ، وبين الأنا الآخر الشبيه لي في كل الحقوق والواجبات .. حيث من لديه هذه الخاصية يرى نفسه ، في شبيهه كأنه يراه في مرآة ، ويرى نفسه من هذا الجانب في المرآة .

عند الأطفال هذه الظاهرة ، تتجلى بظاهرة العدوى، فعندما يبكي طفل نجد أن الأطفال المحيطون به ، يبكون بدون أن يكون هناك سبباً لبكائهم ، إلاّ بكاء هذا الطفل ، هذه الحالة نجدها عند الأطفال قبل عمر السنة ، وبالأخص قبل الشهر الثامن أي قبل عمر نمو الأنا ، وراقبوها إن أحببتم ، قبل أن يعرف الطفل ، وجهه في المرآة عن وجه أمه ليتطور بعدها الاحساس بالأنا إلى حدّ أن الطفل عندما يبدأ بادراك أناه يتمركز حولها ، ولا يستطيع ادراك شيء مختلف عنها ، بل الاسقاط لكل المؤثرات المحيطة اجتماعياً به تكون عليها .

وفي الدراسات النفسية التحليلية هناك مثال مشهور يوضحها هو مثال "هنري فالون" عالم نفس النمو ، حول طفلة كانت تنتظر في حقد إلى قرينتها ، وهي تأكل قطعة حلوى ثم أدى بها هذا الشعور الحاقد إلى أن وجهت لها لكمة موجعة ، فلما سئلت الطفلة لماذا ضربتها أجابت الطفلة الغاضبة لأنها ضربتني

هل نقول أن الطفلة تكذب حقيقة الاطفال لا يكذبون كما هو شائع ، ولكن الاطفال تختلط عليهم المفاهيم بحكم عثرات النمو ، وخصائصها المعرفية والوجدانية ، فلنعد الى الطفلة ، الطفلة التي ضربت الطفلة التي تأكل أمامها ، من حيث هي رأت فيها قرينتها كصورة شبيهة

لها ، تساوت مع علاقتها مع صورتها نفسها ، فبدت لها الضربة الصادرة عنها ، كأنها ضربة موجهة إليها .

بمعنى آخر اسقطت رغبتها ، بأن تضرب الطفلة على ذاتها كحل دفاعي عن ممتلكاتها ، في سيكولوجية الجشتالت ، يبدو الأمر أكثر وضوحاً من حيث هذه المدرسة النفسية العلاجية ، الذي كان من أهم ابداعاتها ما تم دراسته حول الادراك الحسي ، وامتداد احكام هذا الادراك إلى علوم الحياة ، من حيث تعدت ملاحظاتهم عن صورة الشبيه أو الصورة النوعية على بعض الحيوانات كالحمام ، أو الجراد من التأثير العضوي من نمو الكائن الحي نفسه .

الباحث النفسي الشهير "شيلدر" قام بدراسة حول الصورة الباطنية للجسم عند الفرد ومدى تأثير الصورة المرآوية ، أو الصورة الخارجية الآتية من المحيط في توجيه سلوكه الخاص ...

والعودة للأصل دائماً ، و أقصد هنا المنهج النفسي التحليلي ، الذي هو الاصل في تكويني المعرفي ، فبدءً من فرويد الذي عرّف الانا باعتبارها الوظيفة الخاصة بادراك الواقع ، والتعامل معه غير أنه ما لبث أن تبين أن هذا الأنا ، ليس موضوعاً فحسب بل هو موضوع يجتذب قدراً من العشق ، هو ما أطلق على تسميته بالنرجسية ، قياساً بأسطورة نرسيس المشهور في التاريخ اليوناني ، والتي عبر عن هذه الحقيقة الفلسفية ، بكل عمق تفاصيلها ، الفيلسوف اليوناني الغني عن الشهرة "افلاطون في محاوراته العديدة ، لاسيما محاوراته فيدورس" حيث تعلم ان العاشق يرى نفسه في معشوقه ، كأنه يراه في مرآة من حيث أن النزوع من التماهي أو التوحد بالموضوع ، هو امر معروف منذ القدم ، وتشهد عليها بصورة أوضح كل التغيرات اللغوية في مختلف المجتمعات للمهتمين ، اشارة الى البحوث حول اللغة ولاسيما بحوث اللغة وفق المدرسة البنيوية .

فرويد من خلال قراءاته للتاريخ ، أضاف ما رآه من تماهي الأنا لا بصورة الشبيه ، فحسب بل بصورة الشبيه من حيث يبدو له شبيهه أو قرينه ، متحلياً بصفات من الكمال تنقصه هو، يمكنه القول أنه الأنا في جوهره هو الأنا المثالي ، أي صورتنا عن الأنا الفردية الخاصة بنا

مرآة من حيث أن النزوع من التماهي أو التوحد بالموضوع

فرويد من خلال قراءاته للتاريخ ، أضاف ما رآه من تماهي الأنا لا بصورة الشبيه ، فحسب بل بصورة الشبيه من حيث يبدو له شبيهه أو قرينه ، متحلياً بصفات من الكمال تنقصه هو

صورتنا عن الأنا الفردية الخاصة بنا دائماً ، يعتريها عدم الموضوعية ، فنصف أنفسنا أو ننظر لأنفسنا بنظرتنا لمن نعجب بهم ، أي المثال الأعلى الذي يأثرنا

اعتبر لاكان أن ذات المريض ذاتاً تتميز بطريقتها في التعامل مع العالم الخارجي بسبب الاضطراب الحاصل الخارجي أي الناس الآخرين لها

دائماً ، يعتريها عدم الموضوعية ، فنصف أنفسنا أو ننظر لأنفسنا بنظرتنا لمن نعجب بهم ، أي المثال الأعلى الذي يأثرنا ، هذا هو المعنى المقصود بالأنا المثالي ..

في تطور النظرة النفسية التحليلية ، لموضوع الانا وفهم ابعاده يأتي ما توصل إليه "جاك لاكان" كأنه فتحاً كبيراً على فهم الانسان بمعاني واقعية ، واضحة الحدود من حيث أن "جاك لاكان" المحلل النفسي المجدد لنهج فرويد " من كونه أي"لاكان" نظر لمرضاه نظرته إلى موضوع يدرسه من خلال تفاصيل عدة للسلوك ، والمعتقدات من كونه اعتبر أن ذات المريض ذاتاً تتميز بطريقتها في التعامل مع العالم الخارجي بسبب الاضطراب الحاصل الخارجي أي الناس الآخرين لها ، وبذلك استند "لاكان" الى تحليلات هيجل حول ما يسمى النفس المزهوة أي النفس التي تنعي على العالم فساده وترفض أن تدرك مدى مساهمتها في هذا الفساد .

ان تماهي الطفلة في المثال المذكور سابقاً بغريمتها التي كانت تقوم عندها وإن انكرت مقام الأنا المثالي الخاص بها ، عبر علاقة خيالية ملؤها التوتر، والانقباض مما أدى بها إلى فعل طعن العزيمة فعلا كما حصل بالمثال ،الذي أوردته حول طفلة "فالون" حيث فعلة الطفلة الضاربة فعل لا يخلو من البحث عن الرغبة في العقاب ، وبذلك كان ابداع "جاك لاكان" الثري حول "مرحلة المرآة" كمرحلة هامة في النمو النفسي للإنسان من حيث :

- ان الشعور بالذات يرتبط ارتباطاً اساسياً بظهور صورة الجسم بعيداً عن الجسم نفسه ، كيف يكون ذلك بمعنى ثنائية النفسي والجسد في الحضور الانساني .
- تكون في النمو الاولي الطفلي متطابقين ، بمعنى تقدير الذات لا يأتي إلاّ عبر العنصر الحسي المادي ، من كون النمو المعرفي عند الانسان يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة شبه الحسية إلى المعرفة المجردة ، وهذا يتبع تطور المحاكمات المنطقية عبر الاستعدادات العقلية ، وما تراكمه الخبرة الحياتية لنا من خلال استغلال وتوظيف كل ادراكاتنا الحسية ..

فالتكوينات النرجسية البارانويه للدكتاتورين تنهل سعادتها على حساب سعادة الآخر من كون

بذلك استند "لاكان" الى تحليلات هيجل حول ما يسمى النفس المزهوة أي النفس التي تنعي على العالم فساده وترفض أن تدرك مدى مساهمتها في هذا الفساد .

ان الشعور بالذات يرتبط ارتباطاً اساسياً بظهور صورة الجسم بعيداً عن الجسم نفسه

النمو المعرفي عند الانسان يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة شبه الحسية إلى المعرفة المجردة ، وهذا يتبع تطور المحاكمات المنطقية عبر الاستعدادات العقلية ، وما تراكمه الخبرة الحياتية لنا من خلال استغلال وتوظيف كل ادراكاتنا الحسية

وفقاً للمعادلة الوجودية (الأنا /أنت)، لا توجد الأنت دون معادلة يكون الأنا غرف فيها عبر عملية ادراكية واعية

هذه الشخصيات المريضة لا تجد مكاناً لمشاركة الآخرين سعادتها .. حيث الأنا مغدقة في التضخم والانغلاق على محورها ، حيث الجسد والنفس حينها يتطابقان ، بحيث النفس لا يمكن ان تتجاوز الجسد ، لان الجسد وكل مؤثراته مازال هو الصورة الكلية للوجود .. من هنا ووفقاً للمعادلة الوجودية (الأنا /أنت)، لا توجد الأنت دون معادلة يكون الأنا طرف فيها عبر عملية ادراكية واعية .

من هنا أجد أن إدراك الانا ، أو الشيء في سياقات متعددة وعلاقات متنوعة ، إدراكاً يعطي لكل سياق ولكل علاقة أداءً مغايراً ومفهوماً مغايراً، بحيث يجعل الشيء أشياء قد تناقض بعضها، وذلك مكمن الخطورة ، ومكمن أهمية الوعي الذي نسعى لتحقيقه, ولك ان تضيف (الوعي) مع تلك التعددية السياقية إلى مالا نهاية له، بحيث يتعدد مدلوله عبر سياقات معينة بتعدد الاضافات او الصفات ، فنقول: وعي ديني، وسياسي واجتماعي وفكري,,, الخ, وهنا نستعيد كلمة (وعي) بعد وعي مدلولها ، لا من خلال مادتها اللغوية فحسب ، وإنما من خلال سياقات تصورية أو افتراضية ، أو من خلال استقرار المصطلح في ذاكرتنا , وعلى هذا الأساس (فالوعي) ليس مجرد إدراك الدلالة اللغوية المباشرة للشيء مفصولاً من سياقه ، ومن علاقاته ومن نتائج هذه العلاقات ومن التحولات الدلالية عبر الزمن, وهنا تقترب مقاصدنا (بالوعي) من التحرر والتميز، بحيث يكون مصطلحا لا يفارق الدلالة الوضعية، وإنما ينطلق منها متنامياً مع الأنساق ، والسياقات والعلاقات ,والوعي في ضوء سياقاته المتعددة ، أي في سلسلة دلالات ، التي اصبحت هذه التداعيات والتداخلات اشكالية ذهنية أنتجهتا اشكاليات العصر المعقدة من خلال تسارع ايقاع الأحداث في محيط وعجز الادراك الواعي عن الاحاطة بها , حيث أننا نلاحظ أن الذين ينظرون إلى الأمور بصورة مستقلة ومجزأة أو مبتسرة من ملابساتها ، وظروفها وأنماط واقعها ، ولا يضعون حساباً للعلاقات سوف يكون حليفهم الاخفاق ، والاحباط , فالوعي المراد في بحثنا هذا وفيما يشاكله يعني : إدراك الانا عبرالآخر ، أوعلاقة المفاهيم بغيرها ، و ما تنشئه تلك العلاقات من متغيرات ، التي هي في الأصل ليست على وتيرة واحدة , لتبيان الفرق بين خصائص الشيء مجرداً ،

أجد أن إدراك الانا ، أو الشيء في سياقات متعددة وعلاقات متنوعة ، إدراكاً يعطي لكل سياق ولكل علاقة أداءً مغايراً ومفهوماً مغايراً

(فالوعي) ليس مجرد إدراك الدلالة اللغوية المباشرة للشيء مفصولاً من سياقه ، ومن علاقاته ومن نتائج هذه العلاقات ومن التحولات الدلالية عبر الزمن

نلاحظ أن الذين ينظرون إلى الأمور بصورة مستقلة ومجزأة أو مبتسرة من ملابساتها ، وظروفها وأنماط واقعها ، ولا يضعون حساباً للعلاقات سوف يكون حليفهم الاخفاق ، والاحباط

الوعي المراد في بحثنا هذا وفيما يشاكله يعني : إدراك الانا عبرالآخر ، أوعلاقة المفاهيم بغيرها ، و ما تنشئه تلك العلاقات

من متغيرات

ما أجده هاماً ايضاً ، ان تكون ارادتنا لاعتماد قدرات تفعيلية لا انفعالية، وقدرات ابتكارية لا استلابية، وقدرات عملية منتجة، وقدرات معرفية ،لا قدرات نقلية يرددها الآخرون لنتبناها بكليتها بدون استبصار واعمال المحاكمات لتطبيقاتها المختلفة

لكن الحرب على الجهالة والتعصب وتغييب الآخر ، حيث الصدمة تكون كبيرة حين يأتينا الاحباط ممن نثق بنصرتهم ولا يفعلون ، أو أساؤا استخدام الكلام في غير موضعه ، ليأتي فعله كاوياً مخرباً وليس كاوياً بفعل الشفاء

لقد منيت كثير من دول العالم وأحزابه بنكسات موجعة بسبب خموحات فقدت التوقيت والتقدير: تقدير الذات ، وتقدير الآخر.. وأدواتنا في

أما فرؤية المسائل الاجتماعية على المستوى المعنوي ، الأمر يقتضي منا رؤية أعمق مما نتصور ظاهريا للحدث , وبذلك يكون العمل المنتج ما هو إلاّ وليد تفاعل الأشياء مع متلازماتها ، وهنا استعير المثال الشهير حول العربة والقيادة : من حيث أن شروط قيادة السيارة علم، وممارساتها مهارة وفن ، والطريق مضمار لممارسة القيادة ، وعلاقة المركبة هنا متصلة مع عدة عناصر ،وليس فقط رؤية المركبة والطريق، إنما الامر يقتضي منا شيء آخر من صنيعة الوعي بالعلاقة بين الطريق ، والمركبة وسمات كل منهما ، ومميزاته وظروفه الطارئة او الملازمة ، الوعي الذي يكاد يكون غائباً عن الأكثرين ، ممن يتصورون انهم أوعى من غيرهم ، وهنا تكمن الخطورة في غياب مثل هذا النوع من الوعي ، حيث الامر يغدو مؤسفاً عندما يكون هذا الارتباك وسوء التقدير ، والرؤية المحدودة واقعاً بين أوساط النخبة ، متمكنا من المثقفين، وأصحاب الخطاب المتعدد الانتماءات، هذا الوعي الذي أجد من الهام السعي الحثيث لتأكيده ، وتنميته عبر مزيج من قدرات وملكات متعددة، أهمها القدرات استيعابية ،للأحداث بعيداً عن التصنيفات، وبغياب للقدرات التحليلية، والاكتفاء بالقدرات استنتاجية الظاهرة للحكم على الاحداث التي تنغص حياتنا ، ما أجده هاماً ايضاً ، ان تكون ارادتنا لاعتماد قدرات تفعيلية لا انفعالية، وقدرات ابتكارية لا استلابية، وقدرات عملية منتجة، وقدرات معرفية ,لا قدرات نقلية يرددها الآخرون لنتبناها بكليتها بدون استبصار واعمال المحاكمات لتطبيقاتها المختلفة ، من هنا تأتي ممارسة الفعل على ضوء معرفة متعددة المستويات ، وليس المعرفة من باب العلم بالشيء فقط ..

حيث ان اعمال القدرة على انتقاء البديل الامثل في مواجهة الطوارئ , من كونه التصرف الأكثر دقة ، وانضباطاً في المواقف المفاجئة والحرجة والمتداخلة, هنا يكمن الفعل الحضاري التجاوزي القصدي التأسيسي الذي يعمق صلتنا بالواقع ويبرز أصالة انتماءنا , وكل ذلك لن يكون إلاّ بمقدار القدرة على التحكم بالذات ، وامتلاك المشاعر وترشيد العواطف في كل المواقف الذاتية ، والغيرية، وضبط النفس، إنه المبادرة واتخاذ القرار في أحلك الظروف ، إنه حوار الحضارات دونما تشنج أو صدام ، ودونما خنوع أو استسلام ،

تمثلاً بقول الاجداد ومنهم أذكر معاوية بن أبي سفيان الذي يقول : ما دخلت في شيء إلا أحسنت الخروج منه ، إلى قول عمرو: ما دخلت في شيء إلا وقد عرفت من قبل كيف أخرج منه , كما القادة العسكريون المهرة، الذين يضعون خططاً في حال الاضطرار للهزيمة ، كما هو الحال في الخطط لنيل الانتصار، فهم يضعون في حساباتهم عدة احتمالات قبل خوض معاركهم ، بحيث لا تفاجئهم الأحداث، وصدق من قال "من أراد السلام فليستعد للحرب" . فحربنا التي اجدها هنا طويلة ليست حرب الآلات العسكرية فهي حصلت وللأسف ، ولكن الحرب على الجهالة والتعصب وتغييب الآخر ، حيث الصدمة تكون كبيرة حين يأتينا الاحباط ممن نثق بنصرتهم ولا يفعلون ، أو أساؤا استخدام الكلام في غير موضعه ، ليأتي فعله كاوياً مخرباً وليس كاوياً بفعل الشفاء ..

فكم من مشاريع مصيرية باءت بالفشل لمجرد أنها جاءت في غير وقتها، أو نفذت في غير مكانها الطبيعي، سواء كانت بيئة ذهنية أو اجتماعية أو جغرافية ، أو ما شئتم من المؤثرات المباشرة أو غير المباشرة ، وكم قيل: جاء فلان سابقاً لوقته, لقد منيت كثير من دول العالم وأحزابه بنكسات موجعة بسبب طموحات فقدت التوقيت والتقدير: تقدير الذات ، وتقدير الآخر.. وأدواتنا في مسعانا هذا لن يكون الاّ عبر الوعي والادراك الواعي

يقول عباس محمود العقاد في مجموعته الفلسفية : (والوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه , لأنه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير) ...

فكأن العقل يعطي المواصفات، والوعي يحدد الاختيارات، ومن ثم لا قيام لأحدهما بغياب الآخر، وجل الأمر يتحقق بتكامل عمل العقل والنفس ..

, يكون الإنسان حافظاً للقرآن الكريم مقيماً لحروفه وما يقدر عليه من حدوده، ولكنه لا يكون واعياً لمدلوله، مدركاً لأهدافه، مستفيداً من غناه اللغوي والجمالي والدلالي في ممارساته الكتابية والكلامية, ولو أن حفظة القرآن يعونه بهذا القدر الذي تمت الاشارة إليه لكانوا عباقرة استثنائيين, فالقرآن كلام الله، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: بلغوا عني ولو آية

مسعانا هذا لن يكون الاّ عبر الوعي والادراك الواعي

(والوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير) ...

كأن العقل يعطي المواصفات، والوعي يحدد الاختيارات، ومن ثم لا قيام لأحدهما بغياب الآخر، وجل الأمر يتحقق بتكامل عمل العقل والنفس

ليبلغ الشاهدُ الغائبَ فإن الشاهد عسى أن يُبلِّغ من هو أوعى له منه

الحدّ في النهاية حرف نقف عنده بعد ان نفك رموزه ومدلولاته عبر سياقاته المختلفة مفرداً ،

أو مركباً مع أحرف أخرى ونهايات ..

فرب مبلغ أوعى من سامع , وقال: ليبلغ الشاهدُ الغائبَ فإن الشاهد عسى أن يُبلِّغ من هو أوعى له منه ، قال الشارح: أي: أعقل وأحفظ .

هكذا أقدم رؤيتي لوعي الذات والآخر في طريق الفاعلية والتفاعلية .. وليس عبر الالغاء ، او الاندماج أو التجاوز وهنا بيت القصيد ، تخطي الحدود ، فالحدّ في النهاية حرف نقف عنده بعد ان نفك رموزه ومدلولاته عبر سياقاته المختلفة مفرداً ، أو مركباً مع أحرف أخرى ونهايات..

***** *****

ARABPSYNET PRIZE 2013

جائزة يحيى الرخاوي لشبكة العلوم النفسية العربية 2013

مخصصة هذا العام للطب النفسي

www.arabpsynet.com/Prize2013/APNprize2013.pdf

***** *****

في الذكرى العاشرة لتأسيسها (جوان 2013)

الشبكة تسعى لتكريم مجموعة من العلماء بإسنادهم لقب

" الراسخون في العلوم النفسية"

www.arabpsynet.com/Documents/Doc.TurkyPsyExcellent.pdf

***** *****

خريف/ شتاء 2013/2012 فصلي المصطلح النفسي العربي

المعجم الموسع للعلوم النفسية (الاصدار العربي)

عربي - انكليزي - فرنسي

تغيير" ترجمة مصطلح أو ادراج" مصطلح عربي جديد في قاعدة البيانات

http://www.arabpsynet.com/propar/arPropForm.htm

للبحث في المعجم النفسي العربي

http://www.arabpsynet.com/AR/SearchArForm.htm

المعجم الموسع للعلوم النفسية (الاصدار الفرنسي)

فرنسي- انكليزي -عربي

تغيير" ترجمة مصطلح أو ادراج" مصطلح فرنسي جديد في قاعدة البيانات

http://www.arabpsynet.com/propfr/FrPropForm.htm

للبحث في المعجم النفسي الفرنسي

http://www.arabpsynet.com/eng/SearchEngForm.htm